الثلج الوردي

قصة الجريح
حيدر الحاج حسن

امراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

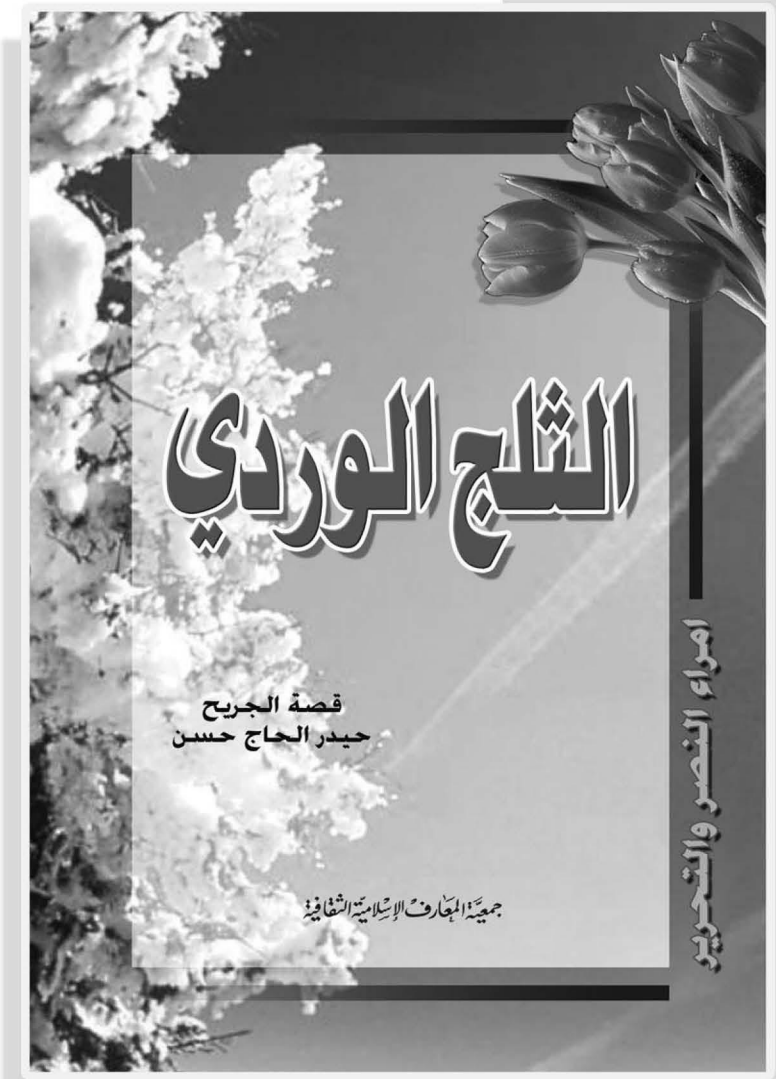
الثلج الوردي
قصة الجريح
حيدر الحاج حسن
جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
امراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

- **القصة**: الثلج الوردي.
- **الكاتب**: عبد الله دهيني.
- **الدرجة**: نالت قصة الجريح حيدر الحاج حسن الجائزة الاولى في مسابقة «أجمل قصة جريح» التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب الله ورعتها بلدية الغبيري.
- **الناشر**: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة**: الاولى ـ ٢٠٠١م ـ على نفقة بلدية الغبيري.

«من جُرح في سبيل الله جاء
يوم القيامة ريحه كريح المسك
ولونه كلون الزعفران عليه
طابع الشهداء».

الرسول الأكرم ﷺ

الإهداء

إلى من يَنْتظر... إلى من يُنْتظر...

إلى صاحب العصر والزمان...

إلى من يسلكَ درب المُنْتظَر...

بالجهاد والجراح والشهادة...

إلى فوارس المقاومة الإسلامية...

عبد الله دهيني

من يستطيع أن يمنع القدر من إتمام دورته في الحياة، بل من يستطيع أن يقف في وجه الموت إذا ما حلَّ بساحة العمر، إنه النهاية والبداية، إنه البداية للإنتقال الى الحلم الذي يتحقق.

كنا ونحن نحتمي من القذائف، ونسير بحذر بين الألغام، نتطلع نحو السماء بشوق، وكانت تتمثل أمام أعيننا حكاية رجل سار آلاف الأميال يحج بروحه الى عالم

المطلق، لم ينسَ وهو في عبوره الأخير أن يصنع وسادة من تراب يسند عليها رأسه، غير عابئ بمن حوله من ذئاب، تنتظر اللحظة التي تغنم فيها بعضاً من الحطام.

كانت هذه الصورة لا تغيب عن أعيننا ونحن في طريق العودة، يحز في نفوسنا أننا لم نبلغ الفتح. ولكن هذا الحزن لم يستطع قطع ذلك التواصل بيننا وبين ذلك الرجل الذي سمعنا قصته من قبل

في مسجد القرية. كنت أتساءل في طفولتي عن سرّ بكاء الموجودين حولي عندما يسمعون صوت القارىء، وعندما ازددت وعياً تساءلت عما يربط بين هؤلاء الموجودين في المسجد لحظة بكائهم لمصاب رجل حمل رأسه المقطوع وسار آلاف الأميال والسنين. ولم يستطع القارىء فيما بعد، ولا أمي وأبي أن يشرحوا لي حقيقة ما يجري، لأنني كنت أتساءل عن سرٍّ ربما

كانوا يعرفونه بالفطرة وربما لم يستطيعوا إيصال ذلك السرّ الى عقلي الطفل.

توالت هذه التداعيات وأنا أعيش تلك اللحظات الفاصلة بين الواقع والحلم، لم تكن تفصل بيني وبين اللّه سوى قذيفة تسقط خطأ. وبدأت أجد بعض أجوبة لأسئلتي الطفلة حول ذلك الرجل. وبدأت أفهم سرّ التواصل بيني وبين ذلك الرجل وبين أصحابه اللذين لم يتخلوا عنه أبداً.

وكيف ان الزمن الطويل الذي يفصل بيني وبينه لم يستطع أن يقطع ذلك التواصل أبداً.

ترى هل لتلك الوسادة من التراب علاقة بالأمر؟ ما الذي جرى في تلك الساعات القليلة؟ هل هو العشق الذي كان يقرر مصائر أولئك الرجال؟

في روحي وكياني كانت تتفجر ينابيع عشق، هي أقرب الى التلاشي في ذرى عالم لم أكن أشعر به من قبل، عالم يجعلك تنسى كل ما حولك

ومن حولك، لتعيش حقيقة واحدة لا مجال للإنفصال عنها، حقيقة انتظار شظية هي وحدها القادرة في تلك اللحظة على نقلك الى المطلق.

لم يطل الإنتظار، وأخطأت إحدى القذائف، فتغير كل شيء. لم تصبنا تلك القذيفة. ولكن دفعها القوي جعلنا نندفع بقوة لنصطدم بما جعل بعضنا يتطاير. كان تهشم أجزاء من جسدي قد منحني

شعوراً بأنني أقترب من الهدف.

ذراعي وساقي اللذان تهشما، والأصوات التي دوّت في رأسي بسبب الإنفجار، والفقدان المفاجىء للبصر، منعتني من صنع وسادة من تراب، لكنني وجدت رأسي يستند الى صخرة هذه المرة. كذلك لم أفقد وعيي، بل شعرت بصفاء غريب، ووعي متكامل، نقلني الى مسجد القرية لأرى الصورة بشكل

اكثر صفاء، شعرت لحظتها بذلك الوصال الذي حاولت بلوغه من قبل ولم أستطع.. ترى هل هي بداية المعرفة؟ ربما أستطيع الحصول على جواب سألته كثيراً لنفسي، ما هو شعور الشهيد لحظة مفارقة روحه لجسده؟ وهل يمكنني أن أتصور أو أصور هذ الشعور ما لم أجرب ذلك؟

كم كنت أرغب بتجربة ذلك.. منذ اللحظة التي صلينا فيها صلاتنا الأخيرة أشبه بما حدث

منذ قرون، انتابنا إحساس بالإقتراب من لحظة الوصال تلك، وحتى بعد إنفجار اللغم كنا نتأكد من بلوغنا ذلك. فقد ناديت رفاقي واحداً واحداً، أجابني المفتي «إصابتي بليغة... وأنت؟» «لا أشعر بشيء». لا ألم أشعر به، ولا عينين أبصر بهما، كل ما شعرت به هو راحة غريبة تملكت جسدي بعد تعب مضنٍ، راحة زادت التصاقي بالأرض، ورغبة شديدة بلقاء

شيء ما لا أدري ما هو.

كفّ حانية كانت تمسح رأسي ووجهي، هل هو ذلك الرجل جاء الى ساحة المعركة؟ كنت أسمع انه يواكب كل الذين يمارسون عشقهم على طريقته، كنت أراه بوضوح، بالصورة نفسها التي أتخيلها في مسجد القرية، عجباً كيف لم أكن أراه من قبل؟ كان حضوره قوياً، لم يكن وحده، كثيرون جاؤا معه، وكثيرون من همسوا في أذني

آيات الصبر، لم يتركوني، حتى في ليلتي الأولى في المستشفى، كنت أشعر وأنا لا أرى بأنفاس شخص ما معي في غرفتي، لم يفارقني لحظة واحدة، وكان وجوده يبعث الإطمئنان في نفسي، يسلخني عما كان يدور حولي من ضجيج آلات بترت ساقي وذراعي.

لم يتركني أبداً، وكذلك شاءت الأقدار أن تتوقف رحلتي هنا، تحادثنا كثيراً أنا والمفتي،

مصير الرفيقين الآخرين بقي مجهولاً، لست أدري أين قذفت بهما الألغام. كانت الأرض أكثر حناناً من البشر، أحاطتنا بندف بيضاء من الثلج أوقفت نزيف جراحنا، وأبقتنا على قيد الحياة. لم أتعرف على من حملوني بعد أربع ساعات، ولكنني تحسست جلودهم وأنفاسهم اللاهثة دفئاً وأماناً.

قد يكون من الطبيعي أن نصدق الأسطورة، ولكن الغريب أن تكون بعض الحقائق

أشبه بالاسطورة، بل الأغرب أن تكون الحقيقة أقوى من الأسطورة. وربما هذا ما جعل أحداثاً مرت في حياتنا كحكاية أحياناً، أو كواقع عشناه أحياناً أخرى، تتجاوز في حجمها، ونتائجها، وتأثيراتها كل الأساطير. وقد يكون لتلك الحكاية التي في مسجد القرية أثرها الكبير في تحويل عظائم الأمور التي تلتها الى صغائر، وقفت أمامها قوية صلبة، وكأنها تستلهم من

تلك الوقائع، وهي تتأمل الغائب عنها بسمعه وبصره ومن أثر الصدمة والفاقد ذراعاً وساقاً بسبب اللغم، ما يجعلها تتجاوز الفشل في الإمتحان الصعب الذي وضعتها الأقدار فيه. وكانت تؤمن أن هذ الإمتحان ليس أصعب، بل هو ليس صعباً أبداً إذا ما قُرن بما قبله. حتى موقفها هذا ليس صعباً إذا ما قُرن بموقف تلك المرأة التي تجاوزت الأسطورة في خيالها

عندما كانت تسمع قصتها في مسجد القرية. كان شيئاً غريباً لم تفهم كنهه يشدها الى تلك المرأة بقوة غريبة، وربما شعرت بسرّ ذلك الإنجذاب في هذه اللحظات التي وقفت تتأمل فيها يداً مقطوعة ووجهاً يلوح عليه شبح ابتسامة توحي بصفاء غريب، وغيبوبة عن عالم كانت تعيشه هي، وتماه مع عالم آخر بدأت تدخله الآنً، فهي لم تكن تتوقع أن يكون لمسجد

القرية هذا الحضور القوي. بل لم تكن تتصور أنها ستحتاج يوماً الى استحضار حكاية تلك المرأة التي أُعْجِبَتْ بها كثيراً لتُعينها على تحمل هذا الموقف. شيء ما يتحرك في أعماق الذاكرة، يستحضر لحظات من التواصل الذي تشعر به كل أم تستمع الى قصة تلك المرأة التي تجاوزت الأسطورة.

قد يكون الأمر محتملاً عندما تفقد الأم واحداً من

أبنائها، لكن أن تفقد كل أبنائها، فهذا أمر يفوق الإحتمال، والذي يفوق الاسطورة هو اعتبارها فقدان أولادها حدثاً عادياً مقابل فقدان ذلك الرجل الذي لم يكن ولدها أصلاً. إذن لماذا كل هذا الإهتمام به ونسيانها لأولادها وكأنهم لا شيء يُذكر؟ هل هو العبور الى المطلق الذي كان يمثله ذلك الرجل بكل قدسيته وشفافيته؟ هل كانت تعيش

هي وأولادها لأجل ذلك المطلق؟

منذ اللحظة التي طلب فيها اختيار «امرأة ولدتها الفحولة من العرب...» الى أي مدى تطلع ذاك باختياره، وتطلعت اليه هي بفهمها؟ فمنذ انطلاق القافلة لتخط على رمال الصحراء حكاية كفين قطعتا كتبت بالدموع والدم والعذاب والظمأ. كفان تقطعان، وماء القربة يسيل على الأرض لتنبت.. وماذا أنبتت، هل هذا النائم على

سريره بلا يد ولا رجل؟

عادت تتأمل ذلك الوجه، وتلك الإبتسامة، تحاول الغوص الى أعماق ولدها هذا في غيبوبته عنها. لم يسمعها عندما كلّمته، ولم يرها بعينيه، كانت آثار اللغم تصنع حاجزاً فاصلاً بينهما، ولكنها لم تستطع منع روحيهما من التواصل، لا توجد قوة في الدنيا تمنع التواصل بين أم وولدها، فهي التي شعرت منذ اللحظة التي أصيب فيها

بشيء غريب يشدها نحو ذلك المكان، كانت تتأمل ودون إرادة منها بين الحين والآخر تلك الطريق الساحلية الممتدة نحو الجنوب تنتظر شيئاً ما، هو حَدْسُ الأم الذي لا يخطىء، ولم يكن أمامها في تلك الحالة سوى الدعاء "دعاء الأم مستجاب..." نعم الدعاء وحده يمنح النفس الطمأنينة والتسليم بقضاء اللّه سبحانه. كم نشعر براحة غريبة عندما نضع أعز ما نملك

بين يدي اللّه. هي الطمأنينة نفسها التي تشعر بها الآن، الدعاء والتسليم، أقصر الطرق الى الإيمان بالمطلق، والأقرب الى حدوث المعجزة، والمعجزة التي كانت تنتظرها لم تكن عودة ولدها طبيعياً كما كان، فهي تعرف أنَّ هذا مستحيل، ولكنها كانت تنتظرها لنفسها لتنتقل الى مستوى يجعلها قريبة من تلك المرأة التي سبقتها بمئات السنين الى تحويل حزنها تجاه الذي

قطعت من أجلها كفا ولدها، وأريق ماء قربته على الرمل، من المؤكد أن المعجزة بلغت لديها حدها الخارق لتبلغ الفتح بعد خمس سنين من هذه اللحظات.

لم أشعر أبداً أن ما حدث كان حلماً. عندما بدأت رحلتي الثانية كنت محمولاً على الناقلة من مكان الى مكان، تطوف بي كل بقاع الأرض لتستقر هناك في مكان عميق عبق بأريج الذكريات،

يحمل الى نسيمه العابق صبراً استلهمته من حكاية خطتها أكف كنت أتمنى أن تحتويني في راحتها لأنتقل الى الحلم الذي ضاع. كنت أرى في مقدمة القافلة سواداً يتحرك ذهاباً وإياباً، رافقني طيلة الرحلة، لم يتركني لحظة واحدة، كنت أشعر بأنفاسه وأنا وحيد في غرفتي بعيداً عمن شاركوني الرحلة منذ البداية. وكنت أسأل نفسي دائماً، هل ذلك السواد هو

نفسه الذي كان يتواجد معي في غرفتي في الليلة الأولى؟ هل هي أمي؟ أم هي الممرضة؟ ولكن الجواب كنت أستوحيه من أحاسيسي رغم كثرة تساؤلاتي، كانت هي ذلك السواد أو الخيال المتشح بالسواد، ربما كان عليها دائماً إكمال الدور الذي بدأه ذلك الرجل وفتحه منذ صنع وسادته من الرمل، وكان عليها هي أن تتابع رحيل القافلة نحو الغد الذي تترجمه الدماء التي

سالت. كان حضوره قوياً في ساحة المعركة، وكان يرافقه الذين لم يتخلوا عنه. راية ترفرف يحملها رجل بلا كفين، كثيراً ما حاولت أن أحرك ذراعي السليمة لاستلم منه الراية التي كان يلح علي باستلامها فلم أستطع، وكان أسْهل كثيراً أن أحرك ذراعي أو ما تبقى من ذراعي لأستلم بها الراية وأحتضنها كما علمني هو. تلك الراية بقيت معي طوال رحتلي مع القافلة، ولا

زالت معي الى الآن رغم انصراف ذلك الرجل والذين لم يتخلوا عنه أبداً، وحضور تلك المرأة المتشحة بالسواد، والتي لم تتركني طيلة ليلتي الأولى وأنا أتعلم لغة الصبر لأول مرة.

كانت الرحلة طويلة، والقافلة تسير ببطء وعليّ أن أرافق القافلة برجل واحدة، وذراع واحدة، لم أشعر بالتعب أبداً رغم المسافات البعيدة التي نقطعها يومياً، وكنت وحيداً وغريباً، أبحث عن رفاقي

لنتم صلاة العشاء التي لم نكملها بعد. وكلما سألت عنهم المرأة المتشحة بالسواد والتي لم أكن أرى وجهها أبداً، كانت كفها الحانية تربُّت على ظهري ثم تنصرف وكأنها تقول "لم يحن الوقت بعد"، والقافلة تسير، وكلما توغلت عمقاً وبعداً اتضحت أكثر معالم الطريق، ويزداد عدد المنضمين الينا، حتى غابت عن بصري القافلة، ولم أعد أرى نهايتها. ازددت شعوراً بالأمان

لكثرة الوافدين، وازددت شعوراً بالراحة عندما حملني أولئك الوافدون لتسرع القافلة، وازددت شعوراً بالحنان لأن تلك المتشحة بالسواد لم تفارقني أبداً. وأعود بين الحين والآخر الى مناداة رفاقي واحداً واحداً لأني لم أعثر عليهم في القافلة، فحديثنا ونحن بين الصخور وحبات الثلج لم ينته بعد، أحدهم كان يحدثني عن حلمه الذي تحقق، والآخر كان يواصل رحلته في قافلة أخرى، وربما

رافق ذلك الرجل والذين لم يتخلوا عنه أبداً، وحتى الذي رافقني في رحلتي الثانية لم أعد أسمع صوته وأراه وكان هذا ما يزعجني. لماذا تخلّوا عني؟ أين هم الآن، لماذا لم يصطحبوني معهم، لقد أخلّوا بالإتفاق، ونقضوا العهد الذي قطعناه على أنفسنا، أن نرحل في قافلة واحدة. ربما أنا من تخلّى عنهم، ولكن الخيار لم يكن بيدي. إنه هو ذلك الرجل الذي اصطحب منا

اثنين ومضوا باتجاه الشرق. لقد تم الإنفصال من هناك، عند نهاية الرحلة الأولى. وكان عليّ أن أواجه مصيري المحتوم، وأن أكمل مسيرتي، ولكنني كنت قد رأيت الذي سلمني الراية وكان بلا كفين، ويحمل معه ذراعاً وساقاً مخضبتين بالدم والبارود والثلج.

عدت وحيداً في غرفتي، حتى المتشحة بالسواد تركتني ورحلت، ربما كانت هناك قوافلٍ أخرى لا تسير بدونها. كنت

حزيناً جداً لعدم التحاقي بتلك القافلة المتجهة نحو الشرق، وحزيناً لرحيل المرأة المفاجىء الذي لم أفهم سببه إلا بعد أن رأيت أمي، وشعرت بكفها الحانية تمسح جبيني المتعب، وعلى شفتيها ابتسامة التشجيع، وقبلة حنونة تطبع على وجهي من الشفتين نفسهما اللتين هدتاني منذ طفولتي الى طريق القافلة التي كان علي أن أرافقها في مسيرتي نحو المطلق. ستكون

قافلتك أكبر، ورحلتك أطول يا أمي، فانت التي ولدتك الفحولة من العرب ستسكنين انتظارك وصبرك، وستقدمين كل يوم راحلاً جديداً ينضم الى تلك القافلة. أقدم لك كفاً وساقاً لدى ذلك الرجل المقطوع الكفين، وسوف يعيدهما إليك يوماً.

منذ تلك اللحظات الفصل لم أعد وحيداً، عدت أسير على قدمي، بل عدة أقدام وعدة أذرع نبتت من جديد، وسأرافق

القـــافلـة دون تعـب أو يأس، سأتبع ذلك الحادي، وسأعود الى مـسـجد القـرية أسـتـمع من جـديد الى حكاية ذلـك الرجل الذي توسد الرمل يومـاً، عسى أن أسـمـع بعـضـاً مـن نجـواه. سـتـعـودين مـعي الى هناك، لأنك لا تزالين بحـاجة الى تلك المرأة، فبـعد سنوات سـينضم الى الـقـــافلـة الأخـــرى، وسيـصحب ذلك الرجل والذين لم يتـــخلوا عنـه واحـداً من أبنائك.

ابتسمي يا أمي، ففي قافلتنا لا مكان للدموع، لأننا ومنذ قررنا حمل المستحيل للوصول الى المطلق، أودعنا أحزاننا ودموعنا هناك في مسجد القرية، وانتقلنا الى عالم نصنع فيه حكايتنا، وستقصّينها على أحفادك قبل النوم، لتحضن أجفانهم صورة، أم ستحمل يوماً كفين مقطوعتين، مخضبتين بالدم والرمل وماء القربة. إصْحبيهم معك الى مسجد القرية

ليولد في كل واحد منهم المفتي.. أو الدحنون الصغير.
فأنا الذي لم أشارك القافلة رحلتها نحو المشرق سأشهد معك الكثير الكثير من الراحلين الملتحقين بذلك الركب يشدهم الى صوت الحادي، فعلى أسوار المدينة لا بد أن ترفرف الرايات الصفراء قريباً.

الجريح

حيدر الحاج حسن